سليمان الشيخ*

قضية أدبية

"ليلة الإعدام" بين الثائر عوض وعمر أبي ريشة

قبل حصول النكبة عام ١٩٤٨، احتفظت الذاكرة الشعبية بقصيدة ردّدتها، اثناء ثورة ١٩٣٦ المشهورة في فلسطين، وبعدَها ضدّ الإنكليز وصنائعهم الصهاينة. والقصيدة المعنية تصوّر حالةَ الثائر الأسير «عوض» الذي شارك في الثورة، ثم قَبض عليه الانكليز وحكموا عليه بالإعدام، وقبل ان يُعْدَم، لجأ الى المخزون الشعبي في ذاكرته، فكتب – أو أوحى بكتابة – قصيدة تعتبر من عيون القصائد الشعبية.

والقصيدة حسب ما جاء في كتاب **صور من الأدب الشعبي الفلسطيني** الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت ١٩٧٤، للكاتب الشاعر الفقيد توفيق زيّاد، هي من نتاج قريحة ذلك الثائر الأسير «عوض» الذي جاد بكلماتها – حسب ما ذكر زيّاد – قبل ساعات من اعدامه. وقد سجل الشاعر زيّاد، في تقديمه للقصيدة في كتابه الآنف الذكر، أنّنا لم نلقَ حتى اليوم من يقول لنا اسمَه الكامل. فكل ما نعرفه من ذلك، هو اسمه الأول: عوض، وأنه من إحدى القرى في منطقة مدينة نابلس، تلك المنطقة التي كسبتْ – بحق – لقب «جبل النار» لأن أهلها كانوا دائماً أولَ من شهر السلاح، وآخر من أغمده، في كل ثورة وانتفاضة مسلحة (ضد المحتلين الأتراك والانكليز من قبل) وحتى يومنا هذا.

كان ذلك عام ١٩٣٦، والشعب العربي الفلسطيني يغلي كالمرجل؛ وكان «عوض» وألوف الشباب الغيورين بين الطلائع التي انجذبتْ للمعركة، ووجدتْ في جو النار والحديد المدى الصحيحَ لتوثُّبها ووطنيَّتِها. ولكنَّ الثائر الشاب لم يكن يملك ثمن السلاح، فكان أن خلعت زوجتهُ الشابة أساورها الذهبية، فحصل عوض على السلاح، وهجر زوجته وأطفاله متوجّهاً الى الجبال. و «عوض» لم يكن الابن الوحيد للعائلة الذي فعل ذلك؛ فلقد سبقه اثنان من إخوته استشهدا على حبل المشنقة. وحارب «عوض» عساكر البريطانيين حرباً شجاعة، منتقلاً من جبل الى جبل، ومن موقعة الى أخرى، ولكنه وقع أسيراً في يدالجيش البريطاني، وصدر ضده الحكم بالإعدام.

ماذا يفعل المحكوم عليه بالإعدام في ليلته الأخيرة، وهو يعرف أن حبل المشنقة سيلتفّ على عنقه مع أشعّة الفجر الأولى؟

في تلك الليلة، كانت نفسُ «عوض» ابن الثالثة والعشرين، تجيش بمشاعر أصفى من قطر الندى، وأشد من العاصفة. فقد تذكّر زوجته وأطفاله الذين يقاسون – بلا معيل – مُرّ الحياة. وتذكّر أخويه اللذين سبقاه في الطريق نفسها. وتذكر شعبه البطل، والقادة الخونة الذين طعنوا الشعب من الخلف. ورأى أن فقراء الشعب، عماله وفلاحيه، هم المخلصون الحقيقيون للقضية وهم الذين يحملون على أكتافهم عِبء المعركة. ودمعت عينا «عوض»، فأخذ قطعة سوداء من الفحم وراح يمرّرها على جدار غرفته في السجن. فباحت قطعة الفحم بكل شجونه، مسجلة قصيدة زاخرةً بأروع مشاعر التضحية والصمود والإصرار.

ومع أشعة الفجر الأولى، ساقوه إلى ساحة السجن ولفّوا الحبل على عنقه. وإلى سجلّ شهداء ثورة ١٩٣٦ الأبطال أُضيف اسمٌ جديد.

وأما القصيدة التي كتبها بالفحم الأسود على جدار غرفته في السجن فقد اكتشفها بعضُ السجناء، وحفظها، واستطاعت أنْ تخترق أسوار السجن، وأنْ تنتشر انتشار النار في الهشيم، وأنْ تكون سلاحاً ماضياً ضد الظلم والاضطهاد.

ويضيف الشاعر زياد في كتابه: من الواضح أنّ هذه الصفحة هي

---

* كاتب وباحث فلسطيني، مدير التحرير السابق لمجلة **العربي** الكويتية.

الوحيدة التي نعرفها من حياة هذا البطل، وأنّ هنالك صفحات أخرى عنه، عن حياته مجهولة لنا، فلعلنا نلقى ذات يوم من يعرّفنا بها. وفيما يلي نقدم تلك القصيدة كاملة:

يا ليل خلّ الأسير تايكمل نواحه
رايح يفيق الفجر ويرفرف جناحه
تايمرجح المشنوق في هبّة رياحه

*

يا ليل وقّف، تأقضي كل حسراتي
يمكن نسيتْ مين أنا ونسيتْ آهاتي
يا حيْف كيف انقضتْ بيديك ساعاتي
شمْل الحبايب ضاع وتكسّروا اقداحه

*

لا تظن دمعي خوف، دمعي على أوطاني
وعلى كمشة زغاليل في البيت جوعاني
مين راح يطعمها بعدي، واخواني
شباب اثنين قبلي ع المشنقة راحوا؟!

*

وبكرة مراتي كيف راح تقضي نهارها؟
ويلها عليّ، وويلها على صغارها
يا ريتني خليت في إيدها سوارها
يوم أن دعتني الحرب تا أشتري سلاحه

*

ظنيت لنا ملوك تمشي وراها رجال
تخسَى الملوك إن كانوا هيك أنذال
والله تيجانهم ما يصلحوا لنا نعال
إحنا اللي نحمي الوطن ونضمد جراحه

(من صفحة ١٩ حتى ٢٢)

أبو ريشة يكتب قصائد شعبية

لقد أدرك الشاعر توفيق زياد في تقديمه للقصيدة أن هناك جوانب تتعلق بالثائر عوض والقصيدة المشار اليها كان يجب الكشف عنها، وأنه نظراً الى ظروف عديدة لم يستطع ذلك.

وحول هذا الأمر، توفرت لديّ بعضُ المعطيات التي يمكن أن تضيف جديداً. وجديدي هو أنني أطلعت على صفحات من مخطوطة كتاب **عمر أبو ريشة كما عرفته** للسيدة سعاد مكربل، الزوجة الثانية للشاعر أبو ريشة – حسب وثيقة الزواج التي أطلعتني عليها.

وقد أكّدتْ لي أن كل ما هو متوفر في المخطوطة منقول من أشرطة تسجيل حوتْ حواراتها وأحاديثها مع الشاعر عن ذكرياته ومواقفه وقصائده ومراحل من حياته. والصفحات التي اطلعتُ عليها من مخطوطة كتاب السيدة مكربل فتحت ثغرةً في رواية الشاعر توفيق زياد حول قصيدة «ليلة الإعدام» وكاتبها. ذلك أنّ صفحات مخطوطة الكتاب تفيد أن القصيدة هي من نظم الشاعر عمر أبو ريشة*، وأنه كتبها بعد أن التقى بالثائر «عوض» في سجنه، حيث طلب الأخير من أبو ريشة أن يكتب قصيدة على لسانه تصوّره وتصوّر حالته، وانّ الشاعر استجاب للطلب. وقد أُذيعت القصيدة ولُحنتْ وانتشرتْ انتشاراً واسعاً بعد ذلك، كما أنّ صحف تلك الفترة نشرتها وعلقت عليها حسب رواية أبو ريشة الواردة في المخطوطة.

ويذكر أبو ريشة أيضاً – حسب رواية المخطوطة – أنه بذل جهوده مع السلطات الإنكليزية كي تعفو عن الثائر «عوض»، إلا أن القضاء الغاشم سبقه الى تنفيذ حكم الإعدام. وقد ذكرت السيدة سعاد مكربل ان أبو ريشة له في الشعر الشعبي والأزجال عدة قصائد، ردّاً على زعمي بأنه لم يشتهر عن الشاعر عمر أبو ريشة أنه كتب قصائد في هذا المجال. وأضافت السيدة سعاد أنها لم تكن تعرف شيئاً عن رواية الشاعر توفيق زياد حول القصائد وقائلها، وأنها لم تطلع على كتابه، ولم تسمع من أحد ما ذكره عن القصيدة وكاتبها. وأكّدتْ أن تدوينها للقصيدة وللحديث الذي ذكره عمر أبو ريشة حولها جاءا بصورة تلقائية وعفوية، لكونها أخذت في نقل الشرائط التي سجلتها بصوت الشاعر عمر عن ذكرياته وقصائده، ولم تتدخل في تمحيص ما سجلته مطلقاً.

وهذه هي القصيدة كما نقلتها السيدة سعاد عن شريط مسجل بصوت الشاعر عمر أبو ريشة.

يا ليل خلّ الأسير تايكمل نواحه
رايح يفيق الفجر ويرفرف جناحه
تايمرجح المشنوق في هبّة رياحه
وعيونه بالزنازين بالسر ما باحو

*

يا ليل وقّف، تأقضي كل حسراتي
يمكن نسيتْ مين أنا ونسيتْ آهاتي
يا حيْف كيف انقضتْ بيديك ساعاتي
شمْل الحبايب ضاع وتكسّرت قداحو

*

ما بضن بدمعي، دمعي نزف على أوطاني
وعا كمشة زغاليل في البيت جوعاني
مين راح يطعمها بعدي، واخواني
شباب اثنين قبلي ع المشنقة راحوا؟!

*

وأم أولادي كيف راح تقضي نهارها؟
ويلها عليّ، أو ويلها على صغارها
يا ريت خليت بإيدها سوارها
يوم دعاني الحرب تا أشتري سلاحو

*

ظنّيت إلنا كبار تمشي وراها رجالْ
تخْسَى الملوك ان كانوا هيك أنذال
والله اللي على رووسهم ما تصلح لِنا نعال
حِنَّا اللي نحمي الوطن ونبوّس جراحو

* ولد الشاعر عمر أبو ريشة في عكا بفلسطين زمن الدولة العثمانية، ويعود في أصوله الى مدينة حلب، وتوفي سنة ١٩٩٠ . وهو من أشهر الشعراء الذين سجلوا للنضال العربي.

قصيدة واحدة

إن التدقيق في القصيدتين حسب الروايتين يظهر أنّهما قصيدةٌ واحدة اختلفت بعض كلماتها وتشكيلاتها – وعلينا أن لا ننسى أنّ القصيدة مكتوبة ومقروءة باللهجة الشعبية – . فأما التغيير في كلمات الأبيات الأخيرة فإنّه يرجع الى اختلاف الظروف والمواقع. فالثائر الذي يقترب من نهايته لم يكن يعنيه التخفيفُ من وقع الكلمات والمعاني، ولا يعنيه كثيراً مراعاةُ هذا الجانب أو ذاك .. في حين أن الشاعر أبو ريشة كان يهمه ان لا تتعرَّض القصيدة للبَتْر أو يتعرَّض هو للملاحقة.

وأياً يكن الأمر فإنّ الشاعر أبو ريشة قد اشتهر بتغيير بعض الفقرات أو الأبيات أو الكلمات من بعض قصائده، بل قد يصيب التغيير تأريخ كتابتها نفسَه. وقد جاءَ في كتاب **عمر أبو ريشة – حياته وشعره** ، الصادر في حلب من منشورات مجلة **الضاد** سنة ١٩٩٠ إثر وفاة الشاعر، على لسان الأستاذ محمود الفاخوري ما يلي: «كان يعاود النظر دائماً في قصائده القديمة التي يعدّها للنشر ثانيةً؛ وهذه المعاودة تسوقه إلى أشكال من التبديل والتغيير في تلك القصائد».

.. ويضيف الفاخوري: «ثم إنه يكرر كثيراً من القصائد في معظم مجموعاته أو دواوينه الشعرية، وهو لا يكتفي بذلك، بل يجيل قلمه في القصيدة المكررة بين طبعة وأخرى، مُبدلاً كلمة هنا، وأخرى هناك، أو مسقطاً بيتاً أو أكثر من القصيدة في طبعة، ومضيفاً إليها بيتاً أو أبياتاً في طبعة تالية. وقد يتناول قلمُ الشاعر تاريخَ نظم القصيدة المثبت في آخرها بالتغيير والتبديل، فلا ندري بأي تاريخ نأخذ».

إنَّ كل ما ذكره الأستاذ فاخوري ينطبق على قصيدة «ليلة الإعدام» كما جاءت في كتاب الشاعر توفيق زياد، وفي مخطوطة كتاب السيدة سعاد مكربل ... ولاسيما في ما يتعلق بتاريخ كتابة القصيدة. فالشاعر توفيق زيّاد يذكر أن القصيدة كتبت إبّان ثورة عام ١٩٣٦، في حين أنّ الشاعر أبو ريشة – حسبما ذكر للسيدة سعاد – كتب القصيدة إما في نهاية الثلاثينات أو في بداية الأربعينات من هذا القرن.

أسئلة واستفسارات

هكذا توزَّعتْ حقيقةُ انتساب هذه القصيدة بين روايتين، وبين ثائر وشاعر. وهذا ما يمكنه ان يحفز جهات البحث على محاولة جلاء الأمر. وقبل أن أُنهي ما توصلت اليه، فإنني أطرح الأسئلة والاستفسارات التالية.

– لا شَكّ أن المستعمر الانكليزي عندما أمر بشنق الثائر «عوض» قد سجل اسمه كاملاً، وسجَّل اسم قريته، وكلَّ المعلومات المتعلقة به. فهل ضاعت كلُّ هذه السجلات؟ ألا يوجد في المكتبات العامة والخاصة ما يمكنه أن يلقي الأضواء على هذا الأمر؟ وهل انتقل الجيل الذي رافق ثورة ١٩٣٦ وقام بها جميعُه إلى رحمة الله؟ أَوَلا يوجد من يتذكَّر وقائعَ، أو بعض وقائع، تلك الأيام؟ ولماذا وَعَت الذاكرةُ منطقَة الثائر «عوض» – نابلسَ – ولم تعِ اسمَ قريته مثلاً؟ ولماذا مازالت الأجيالُ تحفظ أسماء الثوار: الزير، حجازي، جمجوم، وتحفظ القصيدةَ التي قيلتْ فيهم، وتنسى كلَّ ما يتعلق بالثائر «عوض»، عِلماً بأن حادثة الثوار الثلاثة – ثورة البُراق في عشرينيات هذا القرن – تسبق حادثة الثائر عوض؟

– إذا كانت المعلومات قد وفرت سنَّ الثائر عوض (٢٣ سنة)، فلماذا قصَّرتْ عن ذكر معلومات مهمة أُخرى تتعلق به؟ وهل باستطاعة الإنسان ان يُبدع شعراً من نوع قصيدة «ليلة الإعدام» في هذا السن المبكرة دون أن يسبقها بقصائد أُخرى على المستوى نفسه في زمن سابق أو في الفترة الزمنية نفسها؟!

– إذا كانت القصيدة قد لُحِّنَتْ وأذيعت في بعض أجهزة الإعلام في ذلك الزمان، وأنّ الذاكرات قد رَعَتْها وحفظتها وردَّدَتْها لاحقاً، وأنّها كانَتْ تُردَّد اثناء جنازات الشهداء في مراحل تلت ثورة ١٩٣٦ – حسب ما أفادني به أحد شهود تلك المرحلة – فلماذا تمّ إغفالُ اسم مؤلفها؟

سيناريو لِما حدث

لّما كان تأليف القصيدة موزعاً بين التأثُّرُ عوض، والشاعر عمر أبو ريشة فهل يمكن أن يَكون سيناريو الوقائع قد تمّ على الصورة الافتراضية التالية: استمع الشاعر عُمر أبو ريشة أثناء زيارته للسجن إلى حكاية الثائر عوض وتأثَّر بها كثيراً، فَسَاقَهُ الثائر إلى حالة إبداعية ولَّدَتْ عنده القصيدة – الوصية، التي تعبر عن حالة الثائر عوض ومشاعره؛ فكتبها وسلّمه إياها، وقام عوض بنقلها عن الورق مباشرة وسجّلها بالفحم الأسود على جدار زنزانته، خوفاً من فقدانها ونسيانها، ولاسيّما أنّه كان على موعد مع أجله في صباح اليوم التالي؟

إنّ دوري في إلقاء الحصى في بركة هذا الأمر قد تَمَّ، ودور الباحث من بعدي ان يجلو حقائق الأمور ووقائعها، ويصل الى الأسماء والمسمّيات.